

د. سمر حبيب

س
المثلية الجنسية
عند النساء
في الشرق الأوسط،
تاريخها وتصويرها

وقائع محاضرة د. سمر حبيب في بيت أصوات - حيفا، في 3.2.2008

أصوات - نساء فلسطينيات مثليات
المثلية الجنسية عند النساء في الشرق الأوسط (٢٠٠٨)
محاضرة د. سمر حبيب في مقر أصوات

Female Homosexuality in the Middle East (2008)
A Public Lecture delivered in Arabic to Aswat by Dr. Samar Habib

إصدار: أصوات - نساء فلسطينيات مثليات
مجموعة "أصوات" تعمل كمشروع مستقل داخل "كيان - تنظيم نسوي"
إعداد وتحرير: ريماء - مركزة مشروع المعلومات والمنشورات
مراجعة لغوية: رؤى ترجمة ونشر
تصميمي غرافي: *Deek&Sleem*

© جميع الحقوق محفوظة ل: أصوات-نساء فلسطينيات مثليات
ود. سمر حبيب
الطبعة الأولى 2008

أصوات - نساء فلسطينيات مثليات
تلفون: +972 4 8662357
فاكس: +972 4 8641072
e-mail: aswat@aswatgroup.org
website: www.aswatgroup.org
تم إصدار هذا الكتاب بدعم سخّي من:

 OPEN SOCIETY INSTITUTE
& Soros Foundations Network

مؤسسة المجتمع المفتوح وشبكة مؤسسات وصندوق سوروس

حصلت د. سمر حبيب على شهادة الدكتوراه من جامعة سيدني، أستراليا، في موضوع الدراسات الاجتماعية والجنسانية والأدبية.

في عام 2007 نشرت كتابها "المثلية الجنسية عند النساء في الشرق الأوسط: تاريخها وتصويرها". إلى جانب المواد الأكاديمية والترجمات التي نشرت سابقاً في "انتر تكست"، نشرت حبيب عدداً من الأعمال الإبداعية بما فيها رواية "شجرة كالطر" (سيدني: نيبولا للنشر، 2005)، وكتيب "حزر في الفضاء" (سيدني: نيبولا للنشر، 2008).

تحاضر د. حبيب في كلية العلوم الإنسانية واللغات في مجالات الدراسات الإسلامية والنصوص الانكليزية والكتابة. تشمل مجالات تخصصها الثقافة الشعبية في الدول العربية والإسلامية، وأدب الشرق الأوسط، والتاريخ والسياسة، ودراسات المثلية الجنسية. وترأس د. حبيب اليوم تحرير المجلة الأكاديمية الدولية "نيبولا".

قامت بترجمة ونشر الرواية اللبنانية "أنا هي أنت" بقلم إلهام منصور، للانكليزية في عام 2008. وتحضر حالياً لنشر مجلدين يجمعان مقالات تعرض نصوصاً إسلامية عن المثليات بين السنوات 1700-850.



د. سمر حبيب

هذه كلمة صوت الثالثة عشر، والتي تنشر من ضمن مشروع المعلومات والمنشورات الذي يهدف إلى جمع معلومات تخصّ مثليّات الجنس في مواضيع تاريخية، اجتماعية ثقافية، سياسية وصحية.

في هذه النشرة نودّ أن نشاركك بمحاضرة د. سمر حبيب المرتكزة على كتابها.

د. سمر حبيب هي مؤلفة كتاب بعنوان "المثلية الجنسية عند النساء في الشرق الأوسط: تاريخها وتصويرها". د. حبيب تحمل شهادة الدكتوراة من جامعة سيدني، أستراليا، في موضوع الدراسات الاجتماعية، الجنسانية والأدبية. حلت ضيفة على أصوات في آذار 2008، وفي هذا اليوم ألقى د. حبيب محاضرتها بحضور ما يقارب أربعين مشاركاً ومشاركة مثليّات / ين وغير مثليين عرب.

في ما يلي محاضرة د. حبيب حول المثلية الجنسية في الشرق الوسط والمرتكزة بشكل أساسي على كتابها وبحثها وجهدها الخاصّ في هذه القضية.

لا أخفيكم سرّاً أنني أجد نفسي مرحّباً بي في مكان في العالم يثير لديّ أحاسيس مضطربة ومتوتّرة. أشعر أنّ فلسطين هي جزء من حياتي وخيالي وسياستي، وأعرف، أيضاً، أنّ وجودي في العالم حصل بسببها. لقد وُلدتُ لأمّ وأبٍ من المهجّرين الفلسطينيين في لبنان. ولا أعتقد أنّهما كانا سيلتقيان من دون حدوث نكبة 1948 ولا كنتُ سأولد لولا ذلك.

وأضيف أنّني عاندة إلى فلسطين، وأنني عاندة إلى مكان لم أزره، وهذه تجربة روحانيّة، وليس صدفة أن يكون سبب عودتي الروحانية هذه أمراً آخر غير كنيسة القيامة (التي تعنيّني كمسيحيّة)، وغير جبل الهيكل (الذي يثير فضولي العلميّ)، أو المسجد الأقصى الذي يجذبني إليه من خلال محبّتي وإخلاصي للثقافة العربية الإسلامية. أما سبب عودتي إلى فلسطين فهو وجود مجموعة مثليّات فلسطينيات. فلسطينيات ومثليات في وسعهنّ، لأوّل مرة في التاريخ، إنشاء مجموعة.

إنّ وجود مجموعة فلسطينيات مثليّات هو إنجاز عظيم، لأنّ في وسعها أن تجمع المفكرات والسياسيات من كلّ أنحاء العالم، ولأنّ في وسعها أن تخلق المحاورّة وتفرض على مجتمعتها تناول أفكار معاكسة للنمط الاجتماعي السائد، لأنها تنظّم نشاطات تثقيفيّة، وتخلق ترابطاً بين أفراد مجتمعتها. لكن، من أهمّ ما تقوم به أصوات بالنسبة إليّ هو إعداد وجمع أدب وثقافة عربيّين، أو على الأقلّ باللغة العربية، وإنشاء أرشيف يخصّ العربيات المثليات. إنّ هذا النوع من التنظيم هو، في اعتقادي، الأمر الأكثر أهميةً لأنّه يساعدنا على تثقيف أنفسنا. إنّ وجود مجموعة مثليّات فلسطينيات مثل "أصوات" يؤدّي إلى خلق ترابط تاريخيّ بين الأدب العربيّ القديم وهذا الأدب المعاصر، وهما يتيحان الفرصة لبعض المثليات للتكلّم عن أنفسهنّ. إنّ ما يثير سرورّي كثيراً في مشروع النشر هو أن هذه الكتابات تضع بين أيدي المثليين والمثليات نظريات وأفكاراً تكون سلاحاً يحرّنا من مفاهيم المجتمع البطريركي القامع لعظم ما يتعلّق بالجنس.

من خلال هذه المنشورات نستطيع أن نحزّر أنفسنا من رهاب المثليّة الذي ينعكس علينا في اللاوعي، من خلال مجتمعات ترفضنا على الإطلاق. إنّ تثقيف النفس يزيد الوعي. وأرى أن علينا، إذا كنّا نرغب في تغيير المجتمع الذي يرفضنا، أن نبدأ بتغيير أفكارنا السلبية. كمثليات عربيات نحن نعاني، في معظمنا، من فترة اضطهاد طويلة وقاسية أدت إلى اختباء وتزوير هويّتنا النفسيّة ما دمنّا في وسط أهلنا والأقرباء.

إنّ معظم المثليات العربيات اللواتي تعرّفت عليهنّ يتقبّلن الحياة المزدوجة: حياة الخزانة، حسب المصطلح الغربيّ، حول الأهل والأقرباء، وحياة الحرية الجنسيّة، بعيداً عنهم. وأنا أعلم أنّ هناك الكثير من المواقف والحالات التي تجري في العالم والتي يؤدّي فيها تعريف الإنسان بجنسيّته المثليّة إلى خطر على حياته/ها، وفي معظم الحالات يتمّ الاستغناء عن هذا الخطر.

ومع هذا، فإنني لا أنكر إعجابي بالمقاومة التي تقف حتى بوجه هذا النوع من الخطر، كما حصل بمدينة نيويورك في عام 1969، بعد اقتحام الشرطة موقع ستون وول¹.

حدّثني رجلٌ في هذا المكان في عام 2004 عن الأحداث الذي شاهدها بنفسه وقال لي إنّ من بدأت المعركة مع الشرطة كانت مثليّة جدعة² (Butch)، ومن جاء لنجدتها بعد ذلك كنّ ملكات العروض (Dragqueens).

1 في مساء 27.7.1969. في مدينة نيويورك داهمت قوّة الشرطة بارًا للمثلي الجنس يدعى بار ستون وول في قرية غرينتش في الولايات المتحدة. عام 1969 لم تكن هذه الغارات غريبة؛ في الواقع كانت هذه الغارات جري بشكّل دائم ولكن دون أيّ مقاومة تذكر. في تلك الليلة اندلعت في الشوارع احتجاجات عنيفة حيث قاومت الحشود بجرأة غارة الشرطة. وأطلق على ردود الفعل وعلى عدّة ليالٍ من الاحتجاجات أعقبت ذلك الحدث. مظاهرات ستون وول (The Stonewall Riot).

2 المصطلحات بالعربيّة مأخوذة عن قاموس مصطلحات أصوات الثاني ٢٠٠٨.

إنَّ الخروج من الخزانة الذي أتكلّم عنه يأتي بعد فترة قاسية من تثقيف النفس. هذا النوع من الخروج يصبح حركة سياسية فعّالة، ويكون خروجًا عن قصد وبكامل الوعي. ونقوم بهذا النوع من الخروج لكي تكون الإثبات الحيّ على كون المثليّة الجنسيّة شيئًا طبيعيًا، وليست مرضًا أو حالة بحاجة إلى تصليح أو إبادة. وأننا نملك القدرة المتواضعة التي تفرض على الآخرين كيفية التعامل معنا. فإذا تصرّفتِ كفريسة فسوف يفترسونك، وإذا تصرّفتِ مع شعور بالذنب أو بالعار فستعزّزين الفكرة القائلة بأنّ هناك شيئًا يدعو للذنب والعار.

قد أكون محظوظة جدًا لأنّ مثليّتي كانت ملحوظة عندي منذ أيام طفولتي، ولم يكن باستطاعتي أن أتجاهلها، ولهذا السبب أصبح خروجي، وبعد ذلك ظهوري، شيئًا لا يستغنى عنه. أخبرت إخوتي وأخواتي أولًا، وكنتُ في السادسة عشرة من عمري. في تلك الفترة نفسها التقيتُ بحبيبتي الأولى. نصحتني أختي بأن لا أخبر أهلي، لكنني لم أصغ لهذه النصيحة، وأخبرتُ أمّي في السنة ذاتها. كذلك أمّي نصحتني هي، أيضًا، بإصرارٍ أشدّ، بأن لا أخبر أبي لأنّ مثل هذا الخبر قد يؤدي إلى سكتة قلبية لديه. وكان خوفي على أبي يشبه خوف أمّي عليه. ولم أعلم والدي بالأمر إلا بعد مرور ثلاث سنوات. حينها كنتُ في التاسعة عشرة من عمري. في ذلك الوقت كنت في علاقة طويلة الزمن مع شابة أسترالية. لا أزال أتذكّر كيف قرّرت، بعد سنة ونصف السنة من العيش مع صاحبتني، أن أخبر أبي. كان جالسًا أمام التلفزيون في صالوننا في البيت وأنا، بألم شديد وبارتباك هائل، سمعت نفسي تقول: "أنت تعرف أنّ لي صاحبة، نعم؟". التفّت إليّ أبي حينها رافعًا حاجبيه ولم ينطق بشيء إلا "كما تريد"، وتابع مشاهدة الأخبار على التلفزيون، ولم تحدث لأبي سكتة قلبية كما توقّعنا بسبب صراحتي معه. اعتقد أنّه تقبّل الموضوع بشكلٍ شبيه إيجابي حتى أكثر من أمّي، لأنّه، بخلاف أمّي، لم يطلب منّي أن أحاول "تصحيح" تصرّفاتني. اعتقد أنّ هناك اتفاقًا بيني وبين أبي بخصوص جاذبيّة المرأة للإنسان، سواء أكان هذا الإنسان رجلًا أو امرأة أو غيرهما.

خلال السنوات التي أعقبت خروجي أمامهما تعزّزت بينهما وبين صديقتي علاقات حميمة ومخلصة. أذكر، أيضاً، أن أمّي وأبي كانا يشعران، مع هذا كلّه، بالإحراج أمام خالاتي وبعض الأقرباء المسيحيين في أستراليا. وذات مرة طلبا منّي أن لا أكشف الأمر لخالاتي، لكن في يوم من الأيام، وكنت في الخامسة والعشرين من العمر، أتت إحدى خالاتي لتزورنا في أستراليا، وفي ذلك الوقت كنت في علاقة شبه زوجية ولم أرض أن أنكر زوجتي ومكانتها عندي، وبهذه الطريقة (التصرّف الطبيعي) اكتشفت خالتي أنّ سمر مثلية وأنّ زوجتها صبيبة طيبة ومحبوبة من قبل الجميع. عادت خالتي إلى لبنان، ولكنها لم تخبر أحداً عن التطوّر في حياتي. بعد فترة من الزمن عادت هذه الخالة لتزورنا في أستراليا ومعها خالتي الأخرى.

أخذتني الخالة التي تعلم عن مثليتي جانباً وقالت لي: "سمر أنا أحبك كيف ما تكوني بس ما لازم تخبري خالتك الثاني، هي بتفرض الموضوع على الإطلاق وهم تقليديين كثير".

شاهدتُ الرعب في عينيها وكان هذا نفس الرعب الذي مكث عندي منذ عشر سنوات، وكان، أيضاً، الرعب نفسه في عيني أمّي وأختي، وحتى أبي، أحياناً. لكن عندما أتت هذه الخالة بإشعارها الخاص، كنت قد أصبحت خبيرةً في هذا المجال، ولم أعد أقبل بهذا النوع من الإدلال والاختباء، ولم أصدّق للحظة أنّ خالتي الأخرى سوف تتبرأ منّي. ولهذا السبب عندما التقت خالتي لأول مرة بزوجتي قدّمتها لها بكونها "زوجي"، وضحكت خالتي ولم تعترض على الإطلاق.

أشعر أنّ ظهوري كمثلية وخروجي الشفهي واليومي هو عمل سياسي وهو فرض واجب على امرأة مثلي: امرأة لا تخاف ممّا يمكن أن تخسره من خلال الخروج والظهور، وامرأة لا تخاف من مواجهة الرافضين والعنيفين والمتدينين وأفكارهم المضحكة. ولكل هذه الأسباب يتوجّب عليّ الخروج والظهور. هنا أعلم أنه سوف يأتي وقت تقوم فيه خالتي هذه بترديد

الأسطوانة التي نعرفها جيداً. سوف تقول لي: "سمر أنا أحبك كيف ما كنت بس ما تقولي لزوجي، سوف يحتقرك حينها." ولكنني أعرف زوجها وأعرف أننا سنكون دائماً صديقين، وأعتقد أنه على الأقل سيشارك بشأن هويتي الجنسية المثلية بعد حوار كان بيني وبينه، أعلنت له خلاله أنه ليس من الممكن لي أن أتزوج رجلاً أو أن أنجب أطفالاً.

لا أريدكن أن تعتقدن أن إخباركن بهذه التجارب الإيجابية يعني أنني أنكر وجود رهاب مثلية قاتل أو وجود نوع من رهاب المثلية الذي لا نستطيع أن نتفاهم معه بأي وسيلة كانت. لكنني أريدكن أن تعلمن أن هذه التجارب الإيجابية، وهذه الأنواع من الحركات السياسية والشخصية البسيطة تحصل، أيضاً، في العالم. إنني لست فريدة كمثلية عربية في هذه التجربة. أعتقد أن هناك العديد من اللواتي يستطعن أن يخرجن من خزانة المنزل، ولكنهن لا يعالجن رهاب المثلية (الهوموفوبيا) التي تمكث عندهن، مثل أمي وأختي وأبي وخالتي. كلهم كانوا يعتقدون أن الاختباء الفرعي هو نوع فعال، ولم يلاحظوا لبرهة واحدة أن هذا الحل يمس الكيان، أو أن هذه الإهانة هي ثمن غير معقول لما نحصل عليه من السترة الكاذبة، في المقابل.

كنت على استعداد لأن أخسر أصحاباً وأفراداً من عائلتي، لكن لحسن الحظ لم يحصل هذا الشيء معي. حتى أقربائي المسيحيون المحفظون، الذين قيل لهم منذ تفتح وعيهم على الحياة إن التناسل هو شيء مقدس وإن العائلة هي الذرية التي ربها ورأسها هو الأب، والتي تاتي وحدها مع دعم من الله تعالى (ربنا وأبونا الكبير).. حتى هؤلاء يجدون أنفسهم مجبورين على تقبل جنسيتي وصديقاتي وتصرفاتي "الذكورية".

أعتقد أن هناك علاقة بين تقبل ازدواجية الحياة وبين ما تحس به الإنسانية من توتر تجاه مثليتها الجنسية. لربما أن الخطوة الطبيعية القادمة لنا أن تكون من "أصوات" إلى "أصوات ووجوه". هناك قوة هائلة بقولنا، وبكل بساطة، "نعم أنا مثلية، وما المشكلة؟ هل

أنت أحمق؟". هذا النوع من فرض الذات يخلّ بموقف المجتمعات العربية التي لا تشكّ للحظة واحدة في أنّ المثلية الجنسية هي شي طبيعيّ. ولكنّ المشكلة هي تخلف ثقافتنا الجنسية في الوقت الحاضر.

أعرف أنّ هناك فائدة لنا في الاختباء. الاختباء يفيد إنسانة لا تريد أن تخسر حرية التصرف والحركة غير المكشوفة، كما تريد أن تتجنّب مواجهة أهلها وأصحابها لأنها لا تريد أن تستغني عنهم، ولا تريد خسارتهم. وأعرف، أيضاً، أن بعض المثليّات يعتقدن أن الخروج هو إستراتيجية غربيّة وليس علينا أن نتبعها لكون أحراراً لأن مجتمعاتنا تختلف عن الغرب. هذه الفكرة شائعة عند المثليّات العربيات ولكنني لا أتفق مع سياسة الأزواج هذه، خصوصاً لأن الأفكار التي تداولها الغرب بالنسبة للمثلية منذ عشرين أو أربعين سنة ما كانت تختلف عن أفكار العرب الحالية. والطريقة التي أدت لتحرير مثليي ومثليات الغرب كانت وحدها طريقة الإعلان عن النفس، وطريقة الخروج الإيجابي الذي رفض الوسم بالعار والإحساس بالذنب وضّمّ له بكل محبة وفخر الجنسية المثلية وغيرها من الاختلافات. وهذا الخروج الإيجابي عزّز أهمية الحبّ والاكْتفاء الجنسيّ عند الإنسان.

إنّ المشروع السياسي عند مثليي ومثليات الغرب تلقى كثيراً من الكراهية من جهات دينية ومن الشرطة ومن وكالات القضاء والحكّام. وبدأ مشروعهم الكفاحي هذا قبل إزالة قوانين تلك البلاد التي كانت تعاقب العمل المثليّ الجنسي كما لو أنّه جريمة. لا بل تغيّرت هذه القوانين القائمة بسبب جراءة البعض وظهورهم وكفاحهم. إنّ مثليي ومثليات القرن الماضي تظاهروا وحاربوا الشرطة وقضوا وقتاً في السجون واضطّهدوا، لكنهم أسقطوا عن أنفسهم الرعب من المعاملة السيئة ومن السجن، مثل انتفاضة الفلسطينيين في الثمانينات، حيث سيّأت وقت نرفض فيه الاستعمار الجسديّ والروحاني.

مطالبتنا بحريتنا وحقوقنا لن تكون دائماً مسألة ونظيفة، فقد تكون هناك نقطة في الزمن سنضطرّ فيها أن نحارب، وأن نقف صامدين دفاعاً عن حقوقنا، وأن نكون مشاغبين ونتكلّم بأصوات مرتفعة عن أشياء ساخنة، وأن نكون مستعدّين لخسارة أجزاء من حياتنا التي تنمو بخزانتنا. ولا أريد أن أصعب الأمر على أحد، لأنني لا أقصد كل فلسطينية أو عربية مثلية بهذا الكلام، وإنما أقصد تلك التي تفكّر بهذا الأسلوب والتي تستطيع وتريد أن تؤثر وتغيّر في المجتمعات العربية، لتحقيق من خلال طريقة تصرفاتها المكشوفة كل التغيير المرغوب.

وبالنسبة إلينا نحن العربيات المثليات اللواتي نعيش في الغرب، أعتقد أننا نضيف إلى مشكلة رهاب المثلية، فنحن نعيش في بلاد تحميها وتحمي حقوقنا ولكن معظمنا لا نزال نعيش حياة الخزانة المنزلية. أسألي نفسك إذا كنت تستطيعين الخروج الكامل، وإذا كان في وسعك أن تتحملي الخسارات التي ستصاحب هذا القرار. أسألي نفسك إذا كنت قادرة على خسارة رسن الاختباء، وإذا كنت تستطيعين فعل ذلك فافعلي. لا تقبلي أن تكون مشاعرك رهينة للآخرين. لا تقبلي "لو عرفت أمك هذا فسوف يقتلها". إذا كنت تعتقدين أنها سوف تموت من هذا الشيء فدعيها تموت. ابتعدي عن أي شيء يمسّ كيائك وابتعدي عن أي شيء يجعلك تشكّين في حقك في أن تكوني هكذا، وفي حقك في أن تعاملي كإنسانة. ابتعدي عن كل شيء يجعلك تشكّين بجمالك كما أنت وجمال خروجك عن النمط الاجتماعي السائد، واشكري ربك لهذا الاختلاف. ابحثي عن الأخريات. ثقّفي نفسك. حقّقي لنفسك الاستقلال المادي. ضمّي إليك شهواتك الجنسيّة وحرّري نفسك من المفهوم الديني الذي يعلمنا أنّ الجنس هو شيء إثم وأنّ هدفه الأعلى هو التناسل المقدّس.

هنا ينتهي تعليقي البسيط على حالة المثليات العربيات بشكل عام، وتعليقي على أهمية الخروج لقبولنا لذاتنا أولاً. وقبل أن نطلب من المجتمع، لا بل نفرض وجودنا على المجتمع

من خلال الحركة السياسية الأخرى وهي الظهور، لا بدّ لكلّ مثليّة أن تكون ظاهرةً، ولكن عادةً ما يظهر من المثليين والمثليات من هم المتذكّرات والمتأنثون، لأن المجتمع ينصفهم باختلاف عن قالب الحياة "الطبيعيّ" المجرّد بذكر رجوليّ فاعل، وامرأة مقوقعة أنثويّة، مفعول بها.

لكن، لننتقل الآن إلى معاملة الديانات الإبراهيميّة للمثليّة. ولنبدأ بآخر هذه الديانات: العديد من المسلمين يؤمنون بأنّ الإسلام والمثلية لا يصلحان معاً، أو أن اصطلاحاً فيكون هذا مبنياً على خطأ كبير وتجنّب على الدين. ومن الممكن أن نرى أن أي محاولة لإنتاج إسلاميات قابلة للمثلية هي محاولة يائسة وحتى مستحيلة.

ولكن هذا الاعتقاد يسبّب عدم المحاولة الجدية، ويبقى هذا الموضوع مطروحاً للتداول لدى العديد من المسلمين والمسلمات المثليين والمثليات المؤمنين الذين يهتمّون بهذا الموضوع بشكل خاصّ ولأسباب شخصيّة.

أودّ أن أشاركك أفكاراً حول إسلاميّة قابلة للعلاقة المثليّة.

أولاً، يلزمني أن أحدّد الكتابات الإسلامية المقدّسة – أي الأحاديث الصحيحة والقرآن الكريم - وهما لا يتعاملان بشكل واضح مع المثليّة، كما يتبيّن لنا من قبل بلاد كالسعودية أو إيران أو نيجيريا التي تتبع قوانين الشريعة الإسلامية، حيث المثلية تتلقّى عقوبة الإعدام.

هذه الشريعة التي تحكم على المثلية كما لو أنها جريمة تعود إلى حديث عن علي بن أبي طالب. بعد موت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصبح علي بن أبي طالب في مكانة الحاكم لفترة قصيرة. وفي يومٍ من الأيام ألقى القبض على شابّين يمارسان الجنس المثلي، وتبين

للجميع حينها أن لا أحد من صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يستطيع أن يذكر حديثاً له عن كيفية معاقبة المثلية، أو ما إذا يجب أن تُعاقب أصلاً. حينها أمر ابن أبي طالب بإعدام الشابين من خلال إلقائهما من فوق سطح ورميهما بالحجارة. من هنا نصل إلى معاقبة المثلية في الشريعة الإسلامية المعاصرة.

بعد هذا الحدث، أي العقاب الرسمي الأول في الإسلام، لاحظ الفقهاء الأوائل أن القرآن الكريم لا يتكلم بسلبية واضحة أو صارمة عن المثلية، وبدأ مشروع رفض ومعاقبة المثلية عند بعض الفقهاء كالزهري، أبي هريرة، السيوطي، المشتولي، المتقي الهندي والذهبي وغيرهم.

عشر هؤلاء الفقهاء، بعد بحث مستفيض، على بعض الأحاديث المقطوعة التي ادّعت بأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان قد قال إنَّ السحاق هو زنا النساء بينهنَّ، وإنه قال أن يقتل الفاعل والمفعول به بالعمل اللواطِي بين الرجال.

في القرون الإسلامية الأولى لم يكن هناك اتفاق عالمي بين الفقهاء، وتقبّل بعضهم المثلية. ومنهم حسن البصري، مثلاً، أو ابن الحزم، اللذان كانا يتعاملان مع رجال مثليين بشكل صريح وإيجابي، وكتبا عن المثلية بشكل طبيعيٍّ ومسالِم. كذلك فعل قاضي المسلمين يحيى بن أكثم في بغداد في عهد الخليفة المأمون، وبن أكثم كان مشهوراً بحبّه للواط، وهو لم يكن يعاقب العلاقات والأفعال المثلية بل عاقب الزنا بشكل صارم.

وهناك أيضاً ما شاهده ابن حزم في القرن الحادي عشر الميلادي، وهناك ما كتب عن بعض القبائل الإسلامية التي كانت تسمح بالمثلية، وبعض القبائل الأخرى التي كانت تحدها وتعاقبها كالزنا. وابن حزم نفسه هو الذي يثير انطباعاتاً لقصة قوم لوط في القرآن الكريم، وكان يصرّ على أنّ القصد من هذه القصة ليس عقاب المثلية بل عقاب الكفّار.

في الواقع، كان لوط يعاتب قومه لأنهم قد هجروا نساءهم لحب الرجال وليس لحبهم للرجال فقط.

وقد لاحظتُ أنا، أيضاً، أنّ هناك ترابطاً بين أسلوب سرد قصة قوم لوط وقصة قوم ثمود في الكتاب الكريم، وأنّ قوم ثمود أبادهم الله لكفرهم وعدم قبولهم الرسول صالح، كما كان عدم قبول لوط كرسول من قبل قومه.

لكنّ فقهاء اليوم يصرون على استنتاج عدوانية للمثلية من قصة قوم لوط القرآنية، وليس فقط عدوانية لأفراد القوم الذين يمارسون الجنس المثلي، بل عدوانية شاملة لكل المثليين في كل مكان وزمان، في الماضي والحاضر والمستقبل، ولكنّ القصة وحدها لا تحتل هذا الإجراء.

لكن، تبقى هناك أحاديث صحيحة موجودة في صحيح مسلم وصحيح البخاري، وهي تقول في فصل اللباس عند البخاري إنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعن الرجال المتشبهين بالنساء والنساء المتشبهات بالرجال.

وهناك حديث آخر يتكلّم عن مخنث في منزل أم سلمة (زوجة الرسول) وفي الحديث يمنع الرسول من الدخول على الحرم، كما كان يُسمح له سابقاً، وكان هذا بسبب وصفه الجنسيّ لإحدى النساء أمام الرسول ولوحد من صحابته. ومنعه الرسول من الدخول على النساء ليس بسبب مثليته بل بسبب غيرته. ونشاهد هنا أنّ النبيّ محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يعاقب المخنثين، وأعتقد أنّ كلمة المخنث تعني الرجل المثلي المؤنث. لكن، في ذلك الوقت كانت كلمة "المخنث" تعني، أيضاً، الرجل المخصي أو حتى الشخص الذي بلا جنس محدّد أي Intersex. لكن بعض المترجمين في عصرنا الحالي يرون أنّ المقصود

بالمخنث في هذا الحديث هو الرجل المثلي المؤنث، وأنا لا أعترض على إمكانية أن تكون هذه الكلمة واردة بهذا المعنى.

لم يعترض الرسول (صلى الله عليه وسلم) على وجود هذا المخنث أمامه إلا بسبب وصفه الجنسي لامرأة، وليس بسبب خنثه أو جنسيته. ولهذا السبب، نستطيع أن نتفهّم، بوعي أكثر، سبب عدم وجود عقاب رسمي للمثليين إلا بعد موت الرسول. فحتى إن كان الرسول قد لعن النساء اللواتي يرتدين لباس الرجال والرجال الذين يفعلون ذلك بثياب نسوية، فهذا الكلام لا يعني أنه ضد المثلية الجنسية.

لكن، في حال ستكون هناك إسلاميات قابلة للمثلية فسوف تواصل فرض الزواج والإعلان عن العلاقة من خلال هذا الزواج، لأنّ من الواضح أنّ الإسلام لا يسمح بأيّ علاقة جنسيّة خارج إطار الزواج، وسوف يبقى الزنا من أكبر الجرائم الدينية، حتى لو ترك المجتمع عقاب الفاحشة لله ولم يفرض نفسه حاكماً على كلّ ما يفعله الإنسان من تصرفات فردية ومتحرّرة.

كما أن الإسلاميات القابلة للمثلية لا بد أن تفرض على المؤمنين المثليين أدواراً ذكورية وأنثوية بالمعنى التقليدي، لأن المجتمعات الإسلامية لا تزال تتطلب هذه الأدوار - من ست المنزل إلى رجل البيت - لتنظيم الحياة الزوجية والمنزلية. لكن، أعتقد أنه حتى مع هذا التقنين، لا تزال هذه الإسلامية القابلة للمثلية من خلال مؤسّسة الزواج أمراً مرغوباً فيه، ومحطة جديدة لبداية الطريق الطويلة نحو تحرير المثلية الجنسية الموجودة ضمن الديانات الإبراهيمية المحافظة.

أودّ أن أقول هنا إنني أتكلّم من موقف غير متديّن، ومن موقف يغدّي فضولي العلمي والثقافي، ولهذا السبب فأنا لا أتكلّم كمسلمة.

أما الدين اليهودي الذي زوّد المسيحية والإسلام بقصة قوم لوط التي تستعمل كسلاح يعين رهاب المثلية، فيقول البعض فيه إن التشديد في هذه القصة في التوراة كان يقع على نقطة معاقبة قوم لوط بسبب محاولتهم الاغتصابية لأحد زوّار لوط، والذي كان أيضاً ملاكاً ينزل من الله تعالى. ويقول جون بوسويل (John Boswell)³ إن القصد من هذه القصة أصلاً هو تهذيب القبائل نحو معاملة إنسانية مع الأغراب وعابري الطريق. أما كتاب اللاويين (سفر اللاويين في التوراة)، الذي يخصّ حياة الرهبان اليهود من القوم بنفس الاسم، فقد حدّد كثيراً من المنوعات عليهم: منعهم من أكل المحار (نوع من الحيوانات الصدفيّة المائية)، مثلاً، كما منعهم من ارتداء ملابس فيها أكثر من نوع واحد من القماش. لكنّ أحداً لا ينظر إلى تحريم أكل المحار أو ارتداء البذلة المخلوطة، ويتبع هذه التحريمات اليوم، لكنّ الجميع يصرون على ذكر تحريم المثلية بين الرجال، ويرون أنّ هذا التحريم يسري على جميع الرجال والنساء، وهو ليس تحريماً يخصّ الكهان فقط.

لكن حقيقة كلمة "سدومايت" أو عبارة قوم لوط لم يكن معناها يتعلّق بالمثلية بأيّ تحديد أو تعريف طوال قرون عديدة، ولم يتم ذلك سوى بعد اجتهاد رجال الدين في مشروع تحريم العلاقات المثلية الجنسية.

إنّ مجتمعاتنا تفرض علينا الخيار بين المثلية والتدين، لكنني لا أعتقد أنّ هناك اختلافاً أساسياً بين المثلية والدين، إلا إذا كانت هذه المثلية متحرّرة من قيود الدين لصالح الاستمتاع بالجنس.

3 أكبر مرجع غربي متخصص في تاريخ المثلية الجنسية في المسيحية، وهو بروفيسور ومؤرخ معروف بجامعة بيل الأمريكية العريقة وأستاذ قسم التاريخ سابقاً فيها.

وهناك اعتقادات خاطئة أخرى متداولة في مجتمعاتنا العربية، ومن ضمنها أنّ المثلية هي شيء مستورد من الغرب. لكنّ الحقيقة هي أن المثلية الجنسية قائمة في كل أنحاء العالم وفي معظم المجتمعات عبر التاريخ. وكان المفهوم السائد عند الغربيين، في أواخر القرن التاسع عشر، يرى أنّ بلاد العرب الصحراوية نابعة من هذه الممارسات والعلاقات. وكان الغربيون يعتقدون حينها أنّ المثلية أصلها عندنا وأنهم استوردوها منا.

وأحبّ الآن أن أعرض عليكم بعض الكتابات العربية القديمة التي استكشفتها من خلال أبحاثي في هذا الموضوع الشيق. أودّ أن أعرفكن على سحاقيات الحضارة العربية كما قدّمها بعض رجال المجون والأدب القديم، ولكي نفعل ذلك علينا أن نتوجّه أولاً إلى عهد الخليفة المأمون، وتبدأ حكايتنا عند الحسن اليميني المتوفى عام 850 ميلادية. وفي كتاب رشد اللبيب إلى معاشرّة الحبيب يقول اليميني ما يلي:

"السحاق قديم في النساء، ولهن به لذة يهون عندهن الافتضاح به والاشتهار به. قال صلى الله عليه وسلم ((سحاق النساء بينهن زنا)) وأول من سنّ السحق ابنة الحسن اليميني، وكانت وفدت على النعمان بن المنذر فأنزلها عند امرأته هند، فعشقتها وشغفت بها، وكانت هند أحسن أهل زمانها، وهي التي تسمى المتجردة لحسن متجردها، فلم تزل ابنة الحسن تخدعها وتزين لها السحق وتقول: في اجتماع المرأتين لذة لم تكن بين المرأة والرجل، وأمنا من الفضيحة، وإدراكا لتمام الشهوة من غير اتهام ولا محاذرة لعاقبة، حتى اجتمعنا، فوجدت من اللتذاذ بها فوق ما قالت، وبلغ من شغف كل واحدة بالأخرى ما لم يكن بين امرأتين قط قبلهما، فلما ماتت ابنة الحسن اعتكفت هند على قبرها حتى ضرب المثل في ذلك. قال الفرزدق:

وفيت بعهد منك كان تكرما كما لابنة الحسن اليماني

وفت هند (رشد اللبيب ص. 4-123)

يعتقد اليماني، كما نرى، أنّ هند شغفت ببنت الحسن، وإن كانت علاقتها قوية ومخلصة وملتزمة وعلاقة جنسيّة، جسدية بشكل واضح. زوجة المنذر الملك البيزنطي (السيحي) عاشت في القرن الخامس الميلادي، ويعني ذلك أنّ هذه القصة حصلت قبل ولادة الإسلام عند العرب. ويضيف اليماني إلى ذلك أن:

"ثمّ من بعدهما رغوہ ونجدة، تعاشقتا واشتهر أمرهما بالسحاق حتى عيّر أخو رغوہ بذلك من أخته، فرصد لهما حتى وافاهما يوما وهما مضطجعتان، فقتل نجدة وارتحل بأخته، فجعلت رغوہ تحرض قوم نجدة على قتل أخيها، وشبّت الحرب بينهما. وفي هذا دليل على عظم ما يجده من اللذة في السحق وترجيحه عندهنّ على اللذة من الرجال (رشد اللبيب إلى معاشرّة الحبيب، ص. 124)

وتبيّن هذه القصة أنّ العلاقة المثليّة هذه كانت مرفوضة عند قوم رغوہ وأخيها، لكنّ هذه العلاقة لم تكن مرفوضة من قبل قوم نجدة لأنّ عشيقتهما استنجدت بهم حيث شبّت حرب بين القومين.

ويضيف اليماني إلى ذلك أنّ السحاقيات على ضربين: أحلاهما من تحبّ السحق ولا تكره الأير ومن الممكن استخراج هذه من السحق على طريق الرجل "الماهر الموسر من الباه..." ولكن

يضيف اليميني أن الضرب الثاني من السحاقات هي: "المتذكّرة الخلق ويظهر ذلك فيها من صغرها." (رشد اللبيب إلى معاشره الحبيب، ص. 125) وتلك السحاقات، كما يعتقد اليميني، لا يمكن إعادتهنّ، إلى الصراط المستقيم.

كما تعرفنّ فإنّ تحليل اليميني هذا لا يُرينا حقيقة المثليّات العربيات، بل أنه يُرينا جهله في الموضوع، وهذا النوع من الجهل يشاركه فيه العديد من الباحثين الغربيين في أواسط القرن العشرين، حيث كان الباحثون في هذا المجال، باستثناء ألفريد كنسي، يعتقدون أنّ كلّ المثليّات هنّ شبه رجال أو رجال من دون الأعضاء الجنسيّة الأساسيّة، وأنّ الرجال المثليين هم كالنساء ولا تزال المجتمعات العربية على هذا الاعتقاد حتى اليوم. إضافةً إلى ذلك فإنّ المثليّات الفانقات بالأنثوية لا يُعتبرنّ مثليّات حقيقيّات وإن كان يمكن تحويلهنّ لغيريّات من خلال ممارسة جنسية مع الرجل الماهر بالباه!

يجب علينا أن نقرأ هذه الكتابات القديمة بحرص، وأن لا ننسى أنّها كتابات تحاول أن تضعنا في قوالب الجنسيّة الغيرية السائدة التي تفرض علينا أنّ الرجل يحصل على رجولته من خلال تذكّره، وأنّ المرأة لا تستطيع أن تكون امرأة من غير الأنوثة، وإن كان هناك شاب مخنث متكسّرًا في مشيته يفرض مجتمعنا علينا أن نراه كامرأة، لكن لحسن الحظّ، فإنّ مفاهيم نظريّة تحرّر الجنس (Queer theory) التي بدأت في أواخر القرن الماضي علّمتنا أنه ما من سبب لربط جنسية الجسد بالعقل والعكس.

لقد أصبح في وسعي أن أكون امرأة فائقة الأنوثة، وأن أكون مثليّة وحصريّة، أيضًا، ومن الممكن أن أكون مثلية بتصرفاتي وردائي، ولا يعني هذا أنّي مُسترجلة، أو أنّ بيني وبين الرجلولة أيّ علاقة، خصوصًا علاقة الصورة بالشيء الأصل. ومن الممكن، أيضًا، أن أكون رجلًا بلا قضيب، أو أن أكون امرأة متجسّدة بجسد رجل. وحتى لو كان تكويني الجسدي

بأيّ تكوين كان فإنني أستطيع أن أرفض أن أكون امرأة أو رجلاً، وأن أشعر حقاً بأنّ هويتي الجنسية هي شيء غير مُحدّد، أو على الأقل مختلف عن مفهوم المجتمع للرجل والمرأة.

إنّ نظرية تحرّر الجنس تُساعدنا على تحليل هذه النصوص البطريرقية التي ترى أنّ كل ما يتعلّق بالجنس يبدأ وينتهي عند الرجل. لكن يعترف اليميني، وبمضض شديد، بأنّ هناك لذة جنسية لدى تلك السحاقيات، ولا يمكن لهنّ أن يجدن اللذة نفسهما مع الرجال، وهذا اعتراف مهمّ، وهو اعتراف بوجود المثلية عند النساء منذ ذلك الوقت وحتى من قبل ذلك.

كما يدلّ هذا الاعتراف على وجود مثليّات عربيات عبر التاريخ، وفي ثقافات وحضارات مختلفة - وإنّ من أظرف ما نقله اليميني من كتابات سحاقية هو أبيات الشعر التالية:

"وصورت مُتقيّة صورة غلام قد رفع رجلي امرأة وهو ينيكها:
وأرسلت به إلى سحاقة، وكتبت عند الصورة تقول:

هذا وحقك حالي ما

للسحاق وما لي

يرمي القلوب بلحظ

كإصابات النبال

ذو طرة كظلام

وغرة كهاللي

وقامة كقضيّب

تزهو بحسن

اعتدال

فذاك أنسى رسولي يفديه

روحي ومالي
عسى يشقيك هذا فلا
يغنيني فعالي

فصورت السحاقة صورة جارية تساحقها وأرسلتها الى متقية
وكتبت عندها:

لكن كسي وجود
يزهو بخد وخال
كمثل نقطة مسك
تلوح فوق هلال
تريك ثغراً نقياً
ومبسمًا ملالي
فيه رصاب شهى عذب
المذاق حالي
وحسن جيد بهي
كمثل جيد الغزال
أقول لما بدا لي من حسنها يا
ما بدا لي
سبحتن من صاغ الجمال من
صلصال
فصار خلقا سويًا
مكونًا من جمال
أتيت أرشف فيها

وصادها عند دال
إن كان هذا حرام
فذاك غير حلال
(رشد اللبيب إلى معاشره الحبيب، ص. 2-131)

إن هذه القصيدة الأخيرة تمثل لي حقاً أهم وأجمل الكتابات القديمة في هذا الموضوع. لأننا نسمع صوت سحاقيّة عربية من خلال القرون ولا نزال نستطيع أن نفهم أحاسيسها ومعاناتها معاً: من وصف عملية جنسية شفوية ووصف الظلم للاكتفاء الجسدي عند إنسانة من خلال إنسانة أخرى، إلى ما تقوله الشاعرة بالنسبة لتحريم روي العطش الجنسي، وقولها السياسي والواضح إن هذا التحريم هو نفسه حرام. وألاحظ أن الشاعرة تستعمل رموزاً دينية كنقطة المسك التي تلوح فوق الهلال، وأعرف حينها أنني أقرأ لشاعرة عربية مثقفة وقوية الشخصية ومثلية واستثنائية، ربما تكون مسلمة التربية والثقافة. هذه المرأة المجهولة التي خاطبت المثقبة الغيرية ترينا أن المثلية ليست على اختلاف مع العروبة، لا بل إن هناك تضامناً أدبياً وتاريخياً بين هاتين الهويتين، ومع أنّ اليماني كان يرى أن المثلية هي شيء إثم ومحرم بالحديث المقطوع: "السحاق زنا النساء بينهن"، كان لا يزال يتقبل وجودهنّ ولا نرى في كلامه تحريضاً على إبادة المثليات أو معاقبتهنّ.

أمّا أحمد بن يوسف التيفاشي (عالم عربي مسلم تونسي) المتوفى عام 1253 ميلادية، فقد كان ينظر إلى الموضوع بشكل إيجابي ومدّش، وهو الوحيد الذي قال إن بعض الحكماء كانوا يرون السحاق كرجبة طبيعيّة عند النساء.

لكن، سوف أعود إلى التيفاشي بعد أن نلتقي بمثلية عربية أخرى من القرن التاسع، وهذه المرأة كان اسمها بذل، وكانت بذل مطربة وجارية في عهد المأمون، وما نعرفه عن هذه

الملوكة المدنية وارد في كتاب أبو فرج الأصفهاني المشهور: كتاب الأغاني. ويعلمنا الأصفهاني أن بذل كانت مؤلفة لأكثر من 1200 أغنية، وكانت تستطيع أن تغني أكثر من 30,000 لحن.

ويقول الأصفهاني، أيضاً، أن بذل كانت محبوبه من قبل العديد من المعجبين، وقد تقدّم لها أكثر من رجل واحد، ولكنها قضت حياتها بلا زواج.

في مجلس المأمون ذكر أحمد بن أبي طاهر أن محمد بن علي بن طاهر بن الحسين حدثه أن المأمون كان يوماً قاعداً يشرب وبيده قدح إذ غنّت بذل:
ألا لا أرى شيئاً ألدّ من الوعد
فجعلته:

ألا لا أرى شيئاً ألدّ من السحق
فوضع المأمون القدح من يده والتفت إليها وقال: بلى يا بذل،
النيك ألدّ من السحق، فتشورت وخافت غضبه، فأخذ قدحه،
ثم قال: أتمّي صوتك وزيدي فيه:

ومن غفلة الواشي إذا ما أتيتها
ومن زورتي أبياتها خالياً وحدي
ومن صيحة في الملتقى ثمّ سكتة
وكلتاها عندي ألدّ من الخلد

نسبة هذا الصوت:

ألا لا أرى شيئاً ألدّ من الوعد
ومن أمني فيه وإن كان لا يجدي
(نزهة الألباب ص. 242)

وفي يومٍ من الأيام كانت بذل تثير فضولنا في هذا العمل. ما معنى جرأتها هذه التي

تثيرها على فتح موضوع السّحاق أمام المأمون؟ وما هي علاقتها بالسحاق؟ هل كان لديها علاقة مستمرّة مع إنسانة مجهولة. وهل كانت هي من السحاقيات الظاهرات المتذكّرات، أو هل هي من اللواتي يصعب علينا أن نعثر عليهنّ بسبب أنوثتهنّ وتجاهل الأدياء وجودهنّ؟

أنا اعتقد أنّ بذل كانت مثليّة، ليس لأنني أريدها هكذا، وليس لأنني أفرض قيم ومفاهيم عصرنا هذا على القرون الغابرة، بل لأنّ الأصفهاني يشير إليها بأنها "ظريفة"، والظرف كانت كلمة متداولة في بعض المدن العربية القديمة بين السحاقيات العربيات وهي تعني "السحاق".

وبضيف التيفاشي في القرن الثالث عشر: إن قيل إنّ فلانة "ظريفة" علّمَ بينهنّ أنها سحاقة. كما تقول المثليات الغربيات كلمة "gay". المثليات العربيات المدنيات كانت لديهن كلمة "ظريفة" التي شاءت الصدفة أن تتشابه في معناها مع معنى كلمة "gay" الأصلي، وهو الذي يعني أن الإنسانة مبسوطة.

وسأنتقل الآن إلى فصل من كتاب التيفاشي "نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب". هناك فصل يتعلّق بالسحاقيات، وأظنّ أن هذا الفصل يُشكّل توثيقاً للمثلية عند النساء العربيات بشكل إيجابي. وبالإضافة إلى ذكره لإمكانية المثلية أن تكون شهوة طبيعية، فهو لا يذكر، أيضاً، كتاباً أو أحاديث قامعة أو استياء أخلاقياً من الموضوع. ويُعطينا التيفاشي نصّاً منقولاً من سحاقيات اسمها وردة، ومن هي المرأة العربية المثلية الأخرى التي تكلمت عن نفسها من خلال سطور قليلة. تقول وردة:

"نحن معاشر السحاقيات تجمع الواحد منّا مع الناعمة البيضاء،
الغنجة، الغضّة، البضّة، التي كأنها قضيب الخيزران، بثغر
كالأقحوان، وذوئب كالأرنباني، وخذ كشقانق النعمان وتفاح

لبنان، وئدي كالرمان، وبطن بأربعة أعكان، وكس كامن فيه
النيران، بشفرين أغلظ من شفتي بقرة بني إسرائيل، وحديّة
كانها سنام ناقة ثمود، ووطء كأنها آليّة كبش إسماعيل،
في لون العاج، ولين الديقاج، مخلوق مخلق، مضمّخ بالمسك
والزعفران، كأنه كسرى أنو شروان وسط الإيوان، بالأصداغ
المزرفنة، والنحور المزيّنة بالدرّ والياقوت والغلائل اليمنيّة والمعاجر
المصريّة. فنخلو بهنّ بمعاتبات شجبيّة ونغمة عدنيّة، وجفون
ساحرة، سالبية لتامور القلب، ثم إذا تطابقنا بالصدر على
الصدر، وانضمتّ النحور على النحور، وتراكبت الشفران على
الشفرين، واختلج كلّ منهما على الآخر، حتى إذا تعالت الأنفاس،
وتشاغلت الحواس، وارتفعت الحرارة عن الراس، وبطل عند ذلك
كلّ قياس، نظرت إلى الحركات الحسيّة، والضمائر الوهميّة،
والصنائع الغريزيّة، والأخلاق العشقيّة، بين مص وقرص، ورهز
ونهب، وشهيق وخفيق، وشخير وخير، ونخير لو سمعه أهل
ملطيّة لصاحوا: النقيرا مع رفع ووضع، وغمز ولز، وضم وشم
والترام، وقبل وطيب عمل، وانقلاب حرف مغير قلق."

كلّ ذلك بأدب ملوكي وأنين زاكي، حتى إذا حان الفراغ،
وحفّ المصاع، شممت كنسيم الأنوار، في آذار، وروائح الراح
في حانوت خمّار، ونظرت إلى اهتزاز خصن البان من
الأمطار،. فلو نظر الفلاسفة إلى ما نحن فيه لجاروا، وأرباب
اللهو والطرب لطاروا.

(نزهة الألباب، ص. 3-242)

الست وردة لا تريدني أن أعلّق على كلامها، تتكلّم بوضوح وإثارة جنسية ساطعة، ولكنها مثقّفة، لأنها تقتبس من القصص القرآنية: من ناقة ثمود إلى آية كبلش إسماعيل أو بقرة بني إسرائيل. وتتكلّم بالعلمانية، أيضاً، بذكر كسرى أو شروان (الملك الفارسي) والقبائل اليمنية وأهل الملطية.

هذه ليست مجرد قصيدة ساخنة سببها الإثارة فقط، بل هي شعر عربي عميق بمعناه وتقنيته الأدبية. مع أنه هائل بصراحته وتصويره الجنسيّ بقلم امرأة عربية مثليّة (سحاقيّة) من القرن الثالث عشر في بلاد المغرب أو مصر أو سوريا.

أودّ أن أثير انتباهكّن لقصّتين أخريين في هذا الباب، في كتاب التيفاشي. كما أودّ أن أعرفكّن على قصائد كتبت لأجل مدح المثليّة عند النساء:

"شربت النبيذ لحبّ الغزل وملت إلى السحق خوف الحبل
فضاجعت في خلو حبتي وفقت الرجال بطيب العمل
إذا كان سحقي مقنّعاً غنيت به ورفضت الرجل
(نزهة الألباب، ص. 244)

تقول الشاعرة إنه حين فاقت الرجل بطيب العمل الجنسي مع حبيبتهما وجدت قناعة واكتفاء بهذه العلاقة، ولهذا السبب فهي ترفض الرجل. هناك بساطة في التعبير ولكن نشعر باقتراب من تجربة هذه الشاعرة التي بدأت علاقة مع امرأة واكتشفت ميولها. وهناك قصيدة أخرى على هذا النمط، تقول:

قنعت بحبتي ورفضتُ أيراً عواقبه بذات القدر تذري
إذا ما قيل قد حبلت فسحاً لأولاد الزنا يضيق صدري
فما عذري إلى الأبوين فيه؟ فقد قطع الزناء حبال ظهري
(نزهة الألباب، ص. 244)

أولاً، تقول الشاعرة إنّ من محاسن العلاقات المثلية الحصرية هو عدم الحبل، واجتناب جزية الزنا التي كانت تُعاقب بقسوة. وهذا الكلام من الممكن أن يعني أن الكاتبة كانت في إحدى المناطق العربية التي لم تكن تعاقب المثلية كبغداد في القرن التاسع تحت تقنين قاضي المسلمين يحيى بن أكرم.

والقصيدة الأخرى:

وكم قد سحقتنا، أخت تسعين حجةً أسراً وأخفى من دخول الفياضل
ومن حبل يرضى العدو ظهوره وأعظم من هذا ملام العواذل
وليس علينا الحدّ في السحق كالزنا وإن كان أشهى منه عند القوابل
(نزهة الألباب، ص. 244)

هذه القصيدة تردّد ما قيل قبلها وبعدها من أنّ الشاعرة ترى نفسها مقتنعة ومرتوية بعلاقتها المثلية التي تفضّلها على علاقة مع رجل وما يتبع هذه العلاقة من مشاكل اجتماعية وتناسلية.

وأخيراً، في هذا المقطف أودّ أن أعرفكّ على قاضٍ مصريّ متحقّظ في أوائل القرن الثالث عشر، وقد وجد نفسه يوماً في قرافة في الصعيد المصري وخلال تجواله على بغله قال يحدث:

"فبينما أنا أسير بين الجبانات سمعت في تربة
من التُّرب شخيراً ونخيراً وشهيقاً يسلب العقول
ويأخذ بمجامع القلوب، لم أسمع بقطّ مثله ولا

ظننت أحداً يفعلهُ. بحركات موزونة ونغمات
مطبوعة وألفاظ مسجوعة يَنسى لها نغمات
الأوتار وتستخفي لديها ربات المزمار.

فسقت دابتي إلى حائط التربة ثمّ تناولت
وأشرفت وإذا بامرأتين، السفلى جارية تركية
تُخجل البدر كمالاً والغصن اعتدالاً، بيضاء،
غضّة، ناهد. وعليها امرأة نصيفة، بدينة،
حسنة، نظيفة الزيّ، شكلة إلا أنها ليس
كالسفلى، وهي تساحقها وتطارحها ذلك
الكلام والسفلى تجيبها جواي مقصر كأنها
متعلّمة لها: (مكانك كما أنت)، فبقيت
مستلقية على ظهرها ثم كشفت عن بطنها
وسرتها وصدرها ثوبا أزرق كان عليها، فبان
لها صدر كالرمر ونهدان كالماتان وبطن
كأنه عرمة ثلج فيه سرّة كمدهن بلور إلى
حرف راب، أبيض، مشرب بحمرة لم أشاهد
قط عظمة ولا نقتة، ثمّ قالت لي: (ويحك يا
وحش يا ثقيل، رأيت قط مثل هذا؟) فقلت
لها: (لا والله)، قالت لي: (فدونك غنيمة
نادرة هيأها الله لك، وانصرف بحال سبيلك).
(قال): فلما شاهدت ذلك وسمعتهُ سلب منّي

العقل والدين، ولم أملك نفسي، فقلت لها:
(ويحك معي هذا البغل)، قالت: (فأنا أمسكه).
فنزلت ويشهد الله أنني خالفت سجيّتي في
ذلك، ثم دفعت لها عنان البغل والسوط ودخلت
التربة فحللت عقد الرايات وألقيتها على ساقي
ثم حللت السراويل وألقيت طرف الطيلسان
من وراء كتفي وأدخلت يدي فشلت ذبولي
وقربت من الجارية وانحنيت عليها، فعندما
أقضيت برأس ذكرى إلى شفري فرجها
وجدت نعومته وحرارته لم أشعر إلا بحوافر
البغل غادياً والمرأة تصرخ وتقول: (أفلت البغل)،
فقممت أنا واله العقل وخرجت فإذا البغل غاد
بين الجبانات في اختلاط الظلام، لا أعلم إن
غاب عن بصري حين ذهب، فعدوت وراه وأنا
في تلك الحالة، منعظ الذكر، محلول السروال،
ملقى الرايات عاري وجوه أقدامي، مختل
الطيلسان، أقوم مرّة وأقع أخرى."
(نزهة الألباب، ص. 240)

ما يثير إعجابي في هذه القصة هو انتصار البطلتين المجهولتين وبهدلة القاضي وتأديبه، وما
يثير انتباهي، أيضاً، هو وصف الكلام بين الجارية التركية والمرأة التي تضاجعها. القاضي
يصف هذا الكلام ولكّنه لا يردده، ويترك التخاليل لستمعي قصته الطريقة. ومن هذه القصة

نتعلم شيئاً آخر مهماً، إذ نلاحظ أنّ نساء ذلك العصر المتنوعات من التجوّل والحرية الفردية كنّ يجتمعن مع صديقاتهنّ من النساء في الجبانات التي "لا يُحرج عليهنّ في البيت قبيها". وأعلم حينها أنّ المثليات العربيات القديمات لم يكنّ يختلفن عنّا كثيراً، من حيث أن الاختباء، لا بل الاختفاء، قد فرضَ على المرأة العربية بشكل عام، وكذلك كبت المرأة العربية المثليّة. وأقرباؤنا القدماء هؤلاء لم يكنّ دائماً مختبئين أو مضطهدين أو خائفين أو فقراء أو بؤساء أو جواري حُسناء.

وأحبّ أن أختتم هذه الفقرة بمقطعٍ أخير ورد لدى التيفاشي:

"وقد شاهدت امرأة منهنّ بالمغرب، كان لها مال كثير وعقار واسع، فأنفقت على عشيقتها المال الناضر. فلما فرغ وأكثر الناس عليها من العتب والملامة، سوّغت لها جميع العقار فحصلت على نحو خمسة آلاف دينار."
(نزهة الالباب، ص. 237)

لاحظن هنا أنّ المعاتبة ليست بسبب جنس العشيق المؤنث، بل بسبب إفراطها على عشيقتها بالمال الناضر. ولاحظن، أيضاً، أن هذه المرأة كانت مشاهدة - كانت خارجة وظاهرة وكان لها استقرار ماديّ ناتج عن العقار الواسع الذي تبرّعت به لعشيقتها.

تذكرن أنني قلتُ في البداية إن "أصوات" تنتج أدباً مثيراً يحيي تراثاً عربياً قديماً. حين قرأت كتاب "أصوات" بعنوان "حقّي أن أعيش، أن أختار، أن أكون" سررتُ بما وجدت

من تقنيات تعبيرية ومن إنسانية المؤلفات التي برزت من خلال الصفحات، والترابط بين المتكلمات الكلاسيكيات وتجاريهنّ والكاتبات المعاصرات. وعلى هذا الترابط من الممكن أن نبني سياسة تحريرية متماسكة أكثر وسياسة تزيدنا ثقة وفخرًا بأنفسنا.

أشكركن جميعاً على حضوركنّ وانتباهكنّ ووقتكنّ.

” كانت هذه الكلمات الدكتورة سمر حبيب كما وردت في محاضرتها التي ألقتها بمناسبة احتفال أصوات بإصدار كتابها الثاني "حقّي أن أعيش، أن اختار، أن أكون".

هذه الكلمات لا تأتي صدفة أو دونما قصد. إن من حقنا أن نحمل هويّتنا الجنسيّة ونكون فخورين بها، ليس كحقّ شخصيّ وفرديّ بحسب، وإنما كحقّ سياسيّ بحت.

إنّ مثليّتنا لا تقتصر على ميول جنسيّة فحسب، وإنّما هي الهويّة التي يجب تسييسها.

كما رأينا وأيقنا من نضالات سابقة على مدار التاريخ لأناس "عاديين"، من نضال تحرير العبيد وإلغاء العبوديّة إلى انتفاضة شعب ضد الاحتلال، فإنّ علينا نحن، أيضًا، أن نواجه الإجحاف والاضطهاد بكلّ ما نملك.

“

” إنَّ مسؤوليَّةَ تحريرنا، نحن المثليين والمثليات وغيرهم من الأقليات، تقع أولاً وأخيراً على عاتقنا نحن، إذ إن تثقيف أنفسنا يمنحنا الجرأة والشرعية لنيل حقنا في العيش، الاختيار والكيان المتساوي والفخور، فالحرية تؤخذ ولا تُعطى.

نحن لا نتجاهل المصاعب والثمن الذي يمكن للإنسان دفعه مقابل عدم الاختفاء والظهور المثلي السياسي، إلا أنه يجب أن نتذكَّر، أيضًا، أن هناك مردودًا إيجابيًا وهشياً لخطوة الظهور وعدم القبول بالحياة الازدواجية كحلٍّ وحيد.

وكما تقول سمر حبيب: "مطالبتنا بحريتنا وحقوقنا لن تكون دائمًا مسالمة ونظيفة، فقد تكون هناك نقطة في الزمن سننظر فيها أن نحارب، وأن نقف صامدين دفاعًا عن حقوقنا، وأن نكون مشاعبين وتكلم بأصوات مرتفعة عن أشياء ساخنة، وأن نكون مستعدين لخسارة أجزاء من حياتنا التي تنمو بخزانتنا."

“

المصادر :

رشد اللبيب إلى معاشره الحبيب، تأليف أحمد بن محمد بن علي اليمني

نزهة الألباب في ما لا يوجد في كتاب، تأليف أحمد التيفاشي

"*Female Homosexuality in the Middle East*", By Samar Habib

إصدارات أصوات السابقة:

- أين التاريخ من المثليّة الجنسيّة
- المثليّة والأمراض الجنسيّة
- موكب الفخر العالمي
- المثليّة الجنسيّة في الدول العربيّة
- الهوية الجنسيّة
- مؤتمر أصوات واليوم العالمي لمناهضة رهاب المثليّة
- المثليّة الجنسيّة والأفكار المسبقة
- ضوء على صحّة النساء المثليات وعنايتهنّ الصحيّة
- رموز المثليّة الجنسيّة وتاريخها
- تلخيص فعاليات أصوات لسنة 2007
- الخروج من الخزانة أمام الأهل
- المثليّة الجنسيّة في جيل المراهقة
- مصطلحات أساسية في الهوية الجنسيّة 1
- مصطلحات أساسية في الهوية الجنسيّة 2
- كتاب أصوات الأول: "الوطن والنفي في تجربة المتحدرات جنسيا: مجموعة مقالات نسويّة تبحث في موضوع المثليّة الجنسيّة"
- كتاب أصوات الثاني: "حقي أن أعيش، أن أختار، أن أكون: مجموعة نصوص أدبية لنساء عربيّات مثليّات"

